دولة المهدي عجل الله فرجه الشريف نهاية التاريخ أم بدايته

غسان الأسعد*

مقدّمة:

شهدت السنوات الأخيرة من القرن الماضي - وحتى يومنا هذا - نشأةَ تيارات فلسفية كبرى في العالم، وكان لهذه التيارات أتباع وجماهير ومؤيّدون في جميع أنحاء العالم، فقد انتشرت الشيوعية على سبيل المثال بقوة بعد تأسيس الاتحاد السوفياتي، واستمدّت الأحزاب الشيوعيّة قوّتها على المستوى الماديّ والمعنويّ والإعلاميّ من هذه الدولة، كما تبنّت بعض الدول النظامَ الاشتراكيَّ، وإن لم تتبنَّ الشيوعيةَ باعتبارها المؤسّس الرسميّ لهذا الاتجاه الاقتصاديّ، كبعض الدول العربيّة. من ناحية أخرى انتشرت دول وأنظمة وأحزاب مختلفة تناهض الشيوعيّة، وتدعو إلى الديمقراطيّة الليبراليّة وإلى النظام الرأسماليّ، وهكذا خضع العالم إلى جناحين الجناح الرأسماليّ والجناح الاشتراكيّ، وهذا يعني أن هذه الفلسفات لم تكن مجرد نظريّات فكريّة، بل كان وراء هذه النظريات أنظمة كبرى سيطرت على مجريات العالم على المستوى السياسيّ والاقتصاديّ والعسكريّ، بل على المستوى الثقافيّ والفكريّ، وهذا ما أدّى إلى انقسام العالم إلى معسكرين، أحدهما يدور في فلك الاتحاد السوفياتي، والآخر يدور في فلك الرأسماليّة الليبراليّة وأنظمتها، إلا أنّه وفي سياق آخر وبعد انتصار الثورة الإسلامية في إيران أعلن الإمام الخميني قدس سره أن هذه الثورة لا تنتمي لأيٍّ من هذين الجناحين معلناً أنها ثورة «**لا غربيّة ولا شرقيّة**».

الشيوعيّة ونهاية التاريخ

بدأ الحديث بشكل صريح عن نهاية التاريخ مع المفكّرين الشيوعيّين الذين اعتبروا أن هناك حتميّة تاريخيّة لا بدّ أن يصل إليها العالم، بفعل حركة التاريخ وسيرورته، ويرون أن العالم سيصل إلى المرحلة الشيوعيّة النهائيّة التي يستغني فيها الإنسان عن الدولة، حيث

* طالب في الحوزة العلمية - مرحلة السطوح العليا.

إنّه لن يكون هناك ما يسمى بالملكيّة، بل كل شيء سيكون مشاعاً، وهكذا لن يحصل صراع مطلقاً؛ لأنّ الإنسان في المرحلة الشيوعية لن يشعر بحاجته إلى التملّك، فكلّ شيء سيكون بين يديه، وبالتالي لن تتشكّل الطبقات التي لطالما كانت منشأً لظهور الصراعات في العالم، وعندها فقط ينتهي التاريخ.

هذا وقد بنت الشيوعيّة نظريّتها بشكل عام على ما أسّسه الفيلسوف الألمانيّ «**هيغل**» الذي تحدّث بشكل تفصيليّ عن نظريّة الديالكتيك أو الجدل، وتعتبر هذه النظرية محور تفكيره ومنهجه الفلسفيّ، وقد تبنّى كارل ماركس نظريّة الديالكتيك، لكنّه نقلها من الفكر إلى المادة، محاولاً أن يفهم كل شيء في هذا الكون – وخاصّة التاريخ – من خلال هذا المثلث الديالكتيكيّ. ولا بدّ من شرح النظرية الديالكتيكيّة، كي نعرف كيف يفسّر هيغل ومن بعده كارل ماركس مسيرة التاريخ ونهايته.

الديالكتيك:

يمكننا أن نعرّف الديالكتيك ببساطة بأنه عبارة عن صراع بين المتناقضات، وبعبارة أوضح فإنّ كل ظاهرة في هذا العالم لها نقيضها، وهنا ينشأ الصراع بين الشيء وبين نقيضه، وينبثق عن هذا الصراع بين المتناقضين تركيب جديد مختلف تماماً عن طبيعة المتناقضين المتصارعين، وهذا التركيب الجديد يلغي ما كان موجوداً سابقاً، لكنّه يكون ضحيّة لصراع جديد ومتجدّد مع نقيض آخر له، وهكذا يشكّل هذا التركيب الجديد نقطة انطلاق جديدة لصراع آخر. وبهذه الطريقة يفسّر هيغل ومن بعده ماركس حركة التاريخ ونهايته، وفي هذا المجال يقول الدكتور إمام عبد الفتاح إمام وهو متخصّص في الدراسات الفلسفيّة المتعلّقة بهيغل: «**نظام الأشياء عند هيغل يتطوّر وفق التصوّر الآتي: القضيّة ونقيض القضيّة، والمركّب منهما وهو حقيقة اللحظتين السابقتين(.....) الجدل الهيغليّ قائم على أساس أنّ كلّ متناه «وردت في النص متناهي» وهو خطأ» في هذا العالم هو متناقض في ذاته، لذلك فإنّه يتلاشى وينعدم كي يفسح المجال لشيء آخر**»[1].

وقد حاول ماركس أن يطبّق هذه النظريّة انطلاقاً من نظريّته في كيفيّة تكوّن المجتمعات، حيث إنّه اعتبر أن النظام الرأسمالي سوف يتواجه مع نقيضه أي قوى البروليتاريا التي سوف تسيطر على الحكومات وعلى النظم، ثم سينتج عن هذا الصراع بين الطبقة

(١) إمام عبد الفتاح، إمام: المكتبة الهيغلية (الدراسات) تطور الجدل بعد هيغل، لا طبعة، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٧م، ص ٤٤ ٤٥.

الرأسماليّة وطبقة البروليتاريا نظام مركّب جديد، وهكذا تستمرّ الصراعات حتى ننتهي إلى الدولة الشيوعيّة التي تشكّل برأيهم النظام الأكمل للبشريّة. لكنّ هذه النظريّة باءت بالفشل، حيث إنّ توقعات ماركس قد خابت في هذا المجال، فقد كان يتوقّع أن تبدأ الثورة في بريطانيا، إلا أنّ هذا لم يحصل، كما أنّ الاتحاد السوفياتي الذي قام على أساس هذه النظريّة قد انهار بدوره، وانهارت معه أحلام وتوقّعات أتباع النظريّة الشيوعيّة، وبدأ نجم الشيوعيّة بالأفول تدريجيّاً.

الديمقراطيّة الليبراليّة ونهاية التاريخ

وبعد انهيار الاتحاد السوفياتي بدأت تتوسّع سيطرة النظام الرأسماليّ على العالم، وقد عُدّ انهيار الاتحاد السوفياتي في ذلك الوقت انتصاراً للقوى الرأسماليّة وللفكر الليبراليّ، ولم يكن هذا الانتصار انتصاراً عسكريّاً أو سياسيّاً فقط، بل كان انتصاراً فكريّاً لليبراليّة وأنظمتها، التي اعتبرت أنها تخلّصت من عدوٍّ لدود، ومع انهزامه أصبحت الليبراليّة هي الوريث الفكريّ الوحيد في العالم، وبدأ بعض المفكرين والمنظّرين يتحدثون عن نهاية التاريخ، معتبرين أنّ الليبراليّة هي النظام الأكمل لقيادة العالم، وقد وصل التاريخ معها إلى نهايته، فلن يكون هناك نظام آخر في التاريخ يستطيع أن يتفوّق على الديمقراطيّة الليبراليّة والرأسماليّة، وقد وصلت الثقة والاعتداد بالنفس لدى المفكّرين الليبراليين إلى حدّ الغرور، الذي أعمى عيونهم عن الاعتراف بالمصائب والكوارث الاقتصاديّة والاجتماعيّة الناجمة عن النظام الرأسماليّ الحاكم في العالم.

لقد عمل الليبراليّون وإلى يومنا هذا على ترويج الليبراليّة والرأسماليّة على أنّها النّظام النهائيّ للتاريخ، حيث إنّه ليس هناك بديل أكمل منه يمكن أن يحكم العالم، حتى أنّنا نجد أنّ الفيلسوف الفرنسيّ فرنسوا ليوتار يسمّي هذا العصر بعصر «**أفول السرديّات الكبرى**»[٢] أو عصر موت الأيديولوجيّات، لكنّه يستثني النظريّة الليبراليّة من هذه الأيديولوجيّات، يقول الطيّب أبو عزّة في كتابه «**نقد الليبراليّة**» «**الملفت للانتباه هو أن بعض هؤلاء عندما يعلن عن نهاية الأيديولوجيا وذبول النظريّات السياسيّة الكبرى يستثني الليبراليّة واصفاً إيّاها بكونها الأفق النظريّ والفلسفيّ الذي كانت البشريّة تنزع نحوه(...) وهذا الموقف هو محاولة لجعل الليبراليّة ميتا أيديولوجيا «وردت في النص ميتاً أيديولوجياً وهو خطأ واضح»، أي نظريّة تجاوز نطاق الحقل الأيديولوجيّ، بمعنى أنها لا تخضع لما خضعت له الأيديولوجيّات من تجاوز وأفول**»[٣].

٢) أبو عزّة، الطيب: نقد الليبرالية، الطبعة الاولى، دار المعارف الحكمية، بيروت، ١٤٢٨هـ/٢٠٠٧م، ص: ٢٠٣
٣) المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

وفي هذا السياق يعتبر المفكّر الأمريكي الياباني الأصل فرانسيس فوكوياما أنّ الليبرالية تشكّل النظام المتماسك الذي وصلت البشرية معه إلى ذروة تألّقها، ولن تجد مثيلاً لهذا النظام في المستقبل، حيث إنّ «**الشكل الوحيد للحكم الذي استمرّ صامداً حتى نهاية القرن العشرين كان الديمقراطيّة الليبراليّة**»[٤]، وقد حاول فوكوياما في كتابه المعروف «**نهاية التاريخ والإنسان الأخير**» - الذي كتبه كتوسعة لمقال كان قد نشره في وقت سابق وأحدث هذا المقال ضجّة في الأوساط العلميّة، - حشد الأدلّة على نظريتّه، وإيضاح ما كان غامضاً أو ملتبساً فيها كما أوضح في مقدّمة كتابه، ومن أهم المؤيّدات التي يذكرها فوكوياما فضلاً عن التمسّك بمقولات هيغل وشروح بريجينيف الذي شرح مقولات هيغل هي أنّ الليبراليّة تشكّل النظام المتماسك الوحيد في العالم «**كلّما اقتربت الإنسانيّة من نهاية الألف الثاني، فإنّه يلاحظ أنّ الأزمتين التسلّطيّة والاشتراكيّة لم تتركا في ساحة المعركة إلا أيديولوجيا واحدة محتملة ذات طابع شموليّ هي الديمقراطيّة الليبراليّة عقيدة الحريّة الفرديّة والسيادة الشعبيّة**»[٥].

كما أنّ فوكوياما يعتبر أن عمليّة انتقال الأنظمة العالميّة من أنظمة ديكتاتوريّة إلى أخرى ديمقراطيّة كما يحصل في كثير من دول العالم - خاصّة بعد انهيار الاتحاد السوفياتي - إنما يعود إلى سبب واحد برأيه، وهو أن الديمقراطية هي المصدر الوحيد الشرعي للسلطة في العالم الحديث[٦].

والإشكال الأساس الذي يمكن أن يسجّل على فوكوياما هو أنّه يعتمد على مجموعة من المقدّمات الجدليّة التي يعتبرها مقدمات مسلّمة ومنطقيّة لا تقبل النقاش، إلا أنّها لا تعدو أن تكون مجموعة من التحليلات الجدليّة التي لا تخلو من نقاش، ولا تصلح أن تكون أساساً لبناء نظريّة متكاملة.

وفي إطار آخر لا بدّ من الإشارة إلى أنّ فوكوياما يعترف بأن الإسلام يمتلك نظاماً متماسكاً يمكن أن يشكّل بديلاً عن الليبراليّة، إلا أنه يعتقد أن الإسلام يفتقد إلى ميزة أساسيّة بخلاف الرأسماليّة، ألا وهي الجاذبيّة، حيث يقول «**صحيح أنّ الإسلام يشكّل نظاماً أيديولوجيّاً آخر متماسكاً، شأن الليبراليّة والشيوعيّة، وله نظامه الأخلاقيّ الخاصّ وعقيدته الخاصّة في العدالة السياسيّة والاجتماعية، فدعوة الإسلام هي ذات**

٤) فرانسيس فوكوياما، ص: ٧١.
٥) المصدر نفسه ص: ٥١.
٦) المصدر نفسه ص: ٦٩

طابع شموليٍّ، وغير مقيّدة بإثنيّة وقوميّة خاصّة، والإسلام في الواقع هزم الليبراليّة في أجزاء متعدّدة من العالم الإسلامي، وهو يشكّل تهديداً كبيراً للممارسات الليبراليّة، حتى في البلدان التي لم يستطع استلام السلطة فيها مباشرة، بالرغم من القوّة التي أبداها الإسلام في تجدّده الحالي، إلا أن هذا الدين لا يبدو أنه يمارس أيّة جاذبيّة خارج الأصقاع التي كانت إسلاميّة منذ بداياتها، فقد ولّى زمن الغزو الثقافيّ للإسلام كما يبدو»[٧].

لا شكّ أن للإسلام جاذبيّة تفوق الجاذبيّة التي تتمتع بها الليبراليّة، لكن هناك مجموعة من الأسباب والمؤثّرات التي أضعفت عامل الجذب في الدعوة الإسلامية، حيث إن انتشار بعض المجموعات التي تنسب نفسها إلى الإسلام مارست دوراً سلبيّاً في إظهار الصورة الحقيقيّة للإسلام، حتى أنّ الإنسان الغربيّ عندما يسمع كلمة الإسلام يتبادر إلى ذهنه إسلام طالبان وإسلام بن لادن. هذا بالإضافة إلى حملة التشويه التي يحمل الغرب لواءها وهو ما يسمّى بالحرب الناعمة، وهنا تكمن الحرب الحقيقيّة. ونستطيع أن نقول إن الإسلام يمتلك من عوامل الجذب ما لا تمتلكه أيّة نظريّة في العالم، إلا أن هذا يحتاج إلى تهيئة الظروف والأدوات والموارد الإعلاميّة اللازمة لذلك.

نعم، لقد استطاع الغرب بما يتمتّع به من قوّة على المستوى العسكريّ والسياسيّ والإعلاميّ أن يجعل النظام الليبراليّ نظاماً لا بديل عنه في أذهان الكثير من الناس حول العالم، وأصبحت بعض المقولات أمراً ثابتاً لا يجرؤ أحد على نقدها أو معارضتها، فالديمقراطيّة مثلاً واحدة من مقولات هذا النظام الليبراليّ، وقد أصبح هذا المصطلح من أكثر المصطلحات السياسيّة تداولاً وأوسعها انتشاراً، وأشدّها جاذبية لعقول الناس ومشاعرهم، رغم أنّ هناك العديد من الإشكالات العلميّة التي يمكن أن توجّه إلى الديمقراطيّة، لكنّنا نجد أنّ الأقلام التي تنتقدها غالباً ما تكون خجولة تلجأ إلى التلميح دون التصريح.

لقد استطاع الغرب بإمكاناته الإعلاميّة الضخمة أن يعولم أفكاره وثقافته، وأن يحوّل الليبراليّة والديمقراطيّة وغيرها من المقولات إلى موضة العصر، في محاولة لتكريس الثقافة الغربية في أذهان الناس بمختلف انتماءاتهم.

لكن هناك من يرفع صوته اليوم أكثر من أي زمن مضى ليقول إنّ الرأسماليّة باتت تقضي على نفسها، وبعض هؤلاء هم من الرأسماليّين الليبراليّين أنفسهم، كما بدأت

٧) المصدر نفسه، ص:٧١.

تنتشر الدعوات المضادّة للرأسماليّة حول العالم، حيث إنّنا نستطيع أن نرى اليوم كيف ينهار الاقتصاد الرأسماليّ بدءاً من أوروبا وانتهاءً بالولايات المتحدة الأميركيّة.

ويعتقد الفيلسوف الاجتماعيّ مايكل وولتشر أنّ المشكلة الأساسيّة التي يعاني منها النظام الرأسماليّ هي أنّه مجتمع بلا قيَم، حيث يقول: «**المفروض أن يكون واضحاً لهم أنّ المجتمع الذي يريدون مجتمع لا قيَم له**»[٨].

نهاية التاريخ: الرؤية التشاؤميّة

في سياق آخر يرى صموئيل هنتينغتون أنّ نهاية التاريخ ستكون حافلة بالصدامات التي سوف تنشأ بين الحضارات المختلفة، ويحصر هنتينغتون هذه الحضارات بسبع أو ثماني حضارات فقط، وهي: الحضارة الغربيّة، الكونفوشيوسيّة، اليابانيّة، الإسلاميّة، الهندوسيّة، الأرثوذكسيّة، السلافيّة، والأميركيّة اللاتينيّة، وقد تنضمُّ إليها الحضارة الأفريقيّة.

وقد صرّح هنتينغتون بأنّ الإسلام يشكّل الخطر الأساس على الحضارة الغربيّة بعد انهيار الاتحاد السوفياتيّ، حيث يقول: «**إنّ الغرب في ذروة قوّته يواجه غير الغرب الذي بات بشكل متزايد يملك الرغبة والإرادة والموارد لتشكيل العالم بأساليب غير غربيّة**»[٩].

ومن يقرأ كتاب هنتينغتون الذي وضع فيه تصوّره عن خريطة الصدامات والصراعات الحضاريّة يجد أن نظرته إلى المستقبل هي نظرة تشاؤميّة بامتياز، يخيّم عليها شبح الحروب المهولة والشاملة، وقد قدّم هنتينغتون تصوره المفترض لسيناريو الحرب التي من المفترض أن تقع بين الحضارات، وبعد استعراضه لهذا السيناريو المرعب والمدمّر يقول: «**باختصار في المرحلة القادمة، تجنّب حروب حضاراتيّة متداخلة كبرى يتطلّب من الدول الأساسيّة كبح التدخّل في صراع حضارات أخرى، والذي ستجد بعض الدول - وخاصّة الولايات المتحدة الأميركيّة - صعوبةً في قبوله. قاعدة الغياب هذه تعني أنّ الدول الأساسيّة تغيب عن التدخّل في الصراعات في حضارات أخرى، وهو الشرط الأول للسلام في عالم متعدّد الحضارات ومتعدّد الأقطاب، والشرط الثاني هو التوسّط**

٨) أوفي، جان هويزر، نهاية الرأسمالية، مقال على الإنترنت، العنوان: www.midadulqalam.com..

٩) هنتينغتون، صموئيل: الإسلام والغرب آفاق الصدام، ترجمة مجدي شرشر، الطبعة الأولى، مطبعة مدبولي، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م، ص:

المشترك، الدول الأساسيّة تفاوض مع كل واحد مع الآخر للاحتواء أو إيقاف حروب خطّ الصّدع بين الدول أو جماعات من حضارتها»[١٠].

ويعتبر هنتينغتون أنّ صدام الحضارات يشكّل التهديد الجِدّي للسلام في العالم، لذا لا بدّ في رأيه من ابتكار وتأسيس مجتمع دولي مؤسّس على الحضارات، وهذا هو الضمان الوحيد الذي يمنع وقوع الحرب العالميّة بين الحضارات[١١].

وهكذا نرى أنّ الضمان الوحيد لعدم وقوع هذا الصدام بين الحضارات في نظر هنتينغتون هو محاولة التعايش بسلام مع الحضارات الأخرى، حيث يقول في مقاله «**الإسلام والغرب آفاق الصدام**»: «**وفي المستقبل لن تكون هناك حضارة عالميّة، بل عالم ذو حضارات مختلفة سيتعيّن على كلٍ منها أن تتعلّم كيف تتعايش مع الحضارات الأخرى**»[١٢].

لكن يمكن أن نقول في هذا المقام إنّ هذا الحل الذي يقدّمه هنتينغتون هو أقرب إلى الأماني والأحلام منه إلى الواقع، ولا يمكن اعتباره حلاً واقعيّاً بحالٍ من الأحوال، فالتاريخ يؤكّد أنّ وجود أقطاب أو حضارات مختلفة لا يحكمها نظام قيميٌّ إلهيّ سوف يقودها تقديرها لمصالحها إلى شنّ الحروب على الدول والحضارات الأخرى.

المهدويّة نهاية التاريخ وبدايته

استعرضنا فيما سبق نظرة بعض المفكرين الغربيين وتصوّرهم لنهاية التاريخ، وشرحنا باختصار المسار والتصوّر العام الذي يتبنونه في النظرة إلى نهاية التاريخ وتطوّره، وهنا لا بدّ أن نعرض التصوّر الإسلاميّ والتخطيط الإلهيّ لمصير هذا العالم وتطوّره.

وينبغي أن نشير في هذا المقام إلى أنّ هذا التصوّر ينطلق من مجموعة من الأسس الفكريّة التي لا يمكن أن نفهم الرؤية الإسلاميّة لنهاية التاريخ إلا من خلالها:

١- مسألة خلافة الإنسان على الأرض، حيث يقول تعالى: ﴿**إني جاعل في الأرض خليفة**﴾[١٣].

٢- مسألة التسخير، فكلّ هذا الكون مسخّر ومخلوق لخدمة الإنسان في الوصول إلى كماله

١٠) هنتينغتون، صموئيل: صدام الحضارات وإعادة بناء النظام العالمي، ترجمة مالك عبيد أبو شهيوة ومحمود خلف، الطبعة الاولى، الدار الجماهيرية، ليبيا، ١٤٢٩هـ/ ١٩٩٩م، ص: ٥٢٦.

١١) راجع، المصدر نفسه، ص: ٥٣٣.

١٢) الإسلام والغرب، مصدر سابق، ص: ٦٣.

١٣) سورة البقرة: ٣٠

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾[١٤] ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[١٥].

٣- تجاوز البعد الماديّ للإنسان وضرورة النظر إلى البعدين الماديّ والروحيّ معاً.

٤- الهدف الأساس من خلق الإنسان هو معرفة الله.

٥- هداية الله للبشر.

إن هذه الأسس تبيّن بوضوح حجم العناية التي يوليها الله سبحانه وتعالى للإنسان، ومع قليل من التأمّل نستطيع أن ندرك أن الله سبحانه لم يخلق الإنسان ليأكل ويشرب فقط، بل هناك هدف سام وغاية محدّدة من خلقه، ألا وهي وراثته للأرض واستخلافه فيها، وقد بعث الله سبحانه عدداً كبيراً من الأنبياء والرسل لهذه الغاية ولهذا الغرض، وأنزل الكتب السماوية التي تتكفّل هداية الإنسان وتوجيهه إلى ما فيه صلاحه في الدنيا والآخرة بدءاً من آدم عليه السلام، وانتهاءً بخاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وآله، واستمرّت العناية الإلهية مع أهل البيت عليهم السلام، الذين استكملوا هذا المسار الإلهي.

لكن وللأسف، فإنّه ومع كل هذا التخطيط والعناية الإلهيّة والإحاطة الرحمانيّة التي وفّرها سبحانه لهذا التخطيط ولتوجيه الإنسان إلى كماله وسعادته، فإنّنا نجد أنّ البشريّة فشلت في تحقيق هذا الهدف المنشود، ولم تفلح في الوصول إلى شاطئ الأمان والاطمئنان، وأبَت إلا أن تخرج عن المسار الإلهيّ الذي يفترض أن تسير بهديه. وهذا الخذلان حصل عندما تقاعست الأمّة عن نصرة أهل البيت عليهم السلام، حيث إنّ الأمة لم تسلّم يدها لأهل بيت العترة والطهارة كي يأخذوا بأيدينا إلى ما فيه سعادة البشر وصلاحهم، فكان ما كان من قتل وتشريد لأهل البيت عليهم السلام حتى وصل الأمر إلى الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وهو الأمل الوحيد للبشريّة في أن تصل إلى كمالها ولتحقّق الأمانة الإلهيّة التي خلقنا لأجلها، ولمّا لم تكن الأمّة مهيّأة لأن يقودها الإمام، كانت الغيبة الصغرى ومن بعدها الغيبة الكبرى التي تعني أن الإمام ينتظر الأمّة كي تستعدّ لظهوره، وهنا نشأت جدليّة الانتظار، فالأمّة تنتظر ظهوره المبارك، والإمام روحي فداه ينتظر الأمّة كي تكون مهيّأة لظهوره الشريف. ومن هنا كانت مهمّة الإمام عجل الله فرجه الشريف «**مهمّة ربانيّة ضخمة متعدّدة الجوانب جليّة الأهداف...**»[١٦].

١٤) سورة لقمان: ٢٠.

١٥) سورة الجاثية: ١٣.

١٦) كوراني، علي(شيخ): عصر الظهور، الطبعة الأولى، مركز النشر مكتب الإعلام الإسلامي، قم، ١٤٠٨هـ، ص: ٣١٥.

انطلاقاً من هذا التصوّر العام نستطيع أن نقول إنّ التاريخ لم يبدأ حتى ينتهي، فبداية التاريخ الحقيقيّ سوف تنطلق مع ظهور المهديّ عجل الله فرجه الشريف، ومع انتصار دولته المباركة سوف ينطلق الإنسان في مسيرة التكامل، لقد خاضت البشريّة تجارب قاسية ومريرة في ظلّ غياب المعصوم، وإذا نظرنا في صفحات التاريخ نجدها مليئة بالحروب والقتل والفوضى والفساد والظلم، وعلى الرغم من التطوّر العلميّ والحضاريّ الكبير الذي وصل إليه عقل الإنسان، فإنّ البشريّة لا زالت قابعة في غياهب الجهل والتخلّف على مستوى القيَم الإنسانيّة والإلهيّة، فنحن نعيش اليوم مفارقة كبرى، ففي ظلّ التطوّر العلميّ والتكنولوجيّ الهائل، إلا أنّنا لا زلنا نعيش حالة من الضياع والجهل والفراغ على المستوى القيميّ والعقديّ، ولذلك فإنّ الإمام عند ظهوره سوف يأخذ بيد البشريّة جمعاء إلى مراتب عالية جداً من الرقيّ القيميّ والعلميّ على حدّ سواء.

ولا بدّ من الإشارة هنا إلى مسألة مهمّة، وهي أن المفكّرين الذين تحدّثوا عن نهاية التاريخ نظروا إلى تطوّر الإنسان وحياة البشرية ومصيرها انطلاقاً من فلسفة التاريخ، وهذا العلم يقوم على تحليل الأحداث التاريخيّة محاولاً استكشاف العلل الكامنة فيها، في محاولة لاستشراف مستقبل الإنسان نفسه، وفي هذا السياق يقول الدكتور علي أكبر رشاد إنّه ينبغي أن لا ننطلق في الحديث عن نهاية التاريخ مع الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف من وجهة نظر فلسفة التاريخ، بل لا بدّ من الانطلاق مما أسماه فلسفة الفرج، حيث إن فلسفة الفرج لا تحصر اهتمامها بالإنسان نفسه، بل يتعدى ذلك إلى كل الوجود، حيث يقول: «**في فلسفة الفرج يتركّز البحث على تحليل مصير جميع الكائنات الأرضية ونهايتها، بما فيها الإنسان، وللطبيعة أيضاً مصير آخر في عصر الفرج، توصف آنذاك مظاهر الجمال بعد تحقّقه(....) في فلسفة الفرج الحديث يتعلّق بكيفية علاقة البشر بكل أطراف الوجود: علاقة الإنسان بالله، علاقة الإنسان بالآخرين، تعامله مع الطبيعة وعلاقته بها، إذ حتى البيئة ستعيش بأمان**»[١٧]. وقد أشار الشهيد مطهري إلى نوع من الملاءمة بين الإنسان والطبيعة في دولة الإمام المهدي عجل الله فرجه الشريف، وذلك في كتابه «**نهضة المهدي**»[١٨].

كما يمكن أن نقول إن الفارق الأساس بين نظرة الإسلام إلى نهاية التاريخ وبين نظرة التيارات الفكرية والفلسفية الأخرى هي أن هذه التيارات تعتمد في تصورها لنهاية

١٧) رشاد، علي أكبر (شيخ): فلسفة الدين، ترجمة: موسى ظاهر، الطبعة الأولى، إصدار المجمع العلمي العالمي للثقافة والفكر الإسلامي، دار الغدير، بيروت، ١٤٢٩هـ/٢٠١١م، ص: ٢٢٣.

١٨) مطهري، مرتضى (شيخ): نهضة المهدي في ضوء فلسفة التاريخ، لا طبعة، دار التيار الجديد، لا تاريخ، ص:٤٢.

التاريخ على نوع من التحليل أو النظريات التي لا تعدو أن تكون بضعة مقولات قابلة للجدل والنقاش، بينما في فلسفة الفرج، فإنّنا نعتمد على أساس راسخ ألا وهو الوعد الإلهي، حيث يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿**وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ**﴾[١٩] ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ**﴾[٢٠]، كما تستند إلى مجموعة من الروايات التي تتحدث عن الوقائع التي سوف تحصل في آخر الزمان، وسوف أستعين في هذا البحث المتواضع ببعض الروايات التي تحدّثت عن دور الإمام عجل الله فرجه دون الدخول في التفاصيل، حيث إن هذا يحتاج إلى بحث أعمق وليس هنا محلّ النقاش فيه.

وانطلاقاً من هذا الأساس أي فلسفة الفرج، لا بدّ أن نعرض لخصائص دولة الإمام التي سوف تصحّح مسار التاريخ وتعيده إلى الصراط المستقيم بعد انحراف دام قروناً متمادية، عسى أن نكون في هذا العصر قد وصلنا إلى نهاية هذا الانحراف مع اقتراب الفرج إن شاء الله تعالى.

خصائص دولة المهدي المنتظر عجل الله فرجه

١- القضاء على الأنظمة الطاغوتيّة الظالمة الفاسدة، حيث إنّ الروايات الواردة عن أهل البيت عليهم السلام تؤكّد على أن الإمام عند خروجه سوف يقضي على كلّ الأعداء الذين يقفون في وجه الحكومة الإلهيّة العادلة، لا تأخذه في ذلك لومةُ لائم، وتشير بعض الروايات إلى أن عمليّة الظهور سوف تترافق مع حروب ضارية وقاسية يخوضها الإمام مع طواغيت العالم، وهي خطوة ضروريّة لا بدّ منها لإقامة دولة العدل الإلهية، حيث إنّ هؤلاء سيعملون على القضاء على دولته عجل الله فرجه، لذلك سيكون التعامل حازماً وقاسياً مع كل من يحاول الوقوف في وجه المشروع الإلهي لتكامل البشرية، فعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**القائم منصور بالرّعب مؤيّد بالنصر**»[٢١].

٢- انتشار دولة الإسلام في المعمورة حتى لا يبقى في الأرض مكان لا يُسمع فيه كلمة لا إله إلا الله، وقد وردت الكثير من الأخبار والروايات التي تؤكد هذا المعنى، فعن الحسن بن علي عليه السلام أنه قال: «**يبعث الله رجلاً في آخر الزمان وكلَب من الدهر وجهل من**

١٩) سورة الأنبياء، ١٠٥.
٢٠) سورة القصص: ٥.
٢١) المرجع نفسه، ج٥٢، ص: ١٩١

الناس يؤيده الله بملائكته، ويعصم أنصاره وينصره بآياته، ويظهره على الأرض حتى يدينوا طوعاً أو كرهاً، يملأ الأرض قسطاً وعدلاً ونوراً وبرهاناً، يدين له عرض البلاد وطولها، لا يبقى كافر إلا آمن ولا طالح إلا صلح»[٢٢].

وقد يسأل بعضهم سؤالاً في هذا المقام، وهو أن لسان الروايات يؤكّد على عدم وجود غير الإسلام في نهاية الزمان، فما هو مصير غير المسلمين في دولة المهدي عجل الله فرجه الشريف؟ هل يحكم عليهم بالقتل؟!! أم أنهم يستطيعون العيش في ظل ولايته المباركة؟ وبعبارة أخرى هل يمكن للإنسان أن يتمسّك بحريته في اعتناق أي دين يشاء، أم أنّ الإمام يرفض بقاء أفراد غير مسلمين في دولته المباركة، وبالتالي يضعهم بين خيارين إمّا الإسلام أو القتل؟

وهنا نقول إنّ الروايات التي تعرضت إلى هذه المسألة ليست على حدّ سواء، من ناحية الدلالة والوضوح، فهناك روايات تؤكّد أن الإمام إذا خرج، خرج منصوراً بالرعب، يُعمل سيفه في أعداء الله، بحيث لا يبقى إلا الإسلام على وجه الأرض، وهناك روايات تؤكد أنه لا يعمل بسنّة رسول الله في هذه الحالة، فلا يقبل الجزية كما قبلها رسول الله صلى الله عليه وآله، بل يحكم على المشركين بالقتل، ففي تفسير العياشي عن ابن بكير قال: سألت أبا الحسن عليه السلام عن قوله: ﴿**وله أسلم من في السماوات والأرض طوعاً وكرهاً**﴾ قال عليه السلام: «**أنزلت في القائم عليه السلام إذا خرج باليهود، والنصارى، والصابئين، والزنادقة، وأهل الردّة والكفّار في شرق الأرض وغربها، فعرض عليهم الإسلام، فمن أسلم طوعاً أمره بالصلاة والزكاة وما يُؤمر به المسلم ويجب لله عليه، ومن لم يسلم ضرب عنقه حتى لا يبقى في المشارق والمغارب أحد إلا وحّد الله**»[٢٣].

وفي المقابل هناك روايات تقول إنّ الإمام يقبل الجزية، كما قبلها رسول الله صلى الله عليه وآله، فعن محمد بن يحي، عن أحمد بن محمد، عن ابن محبوب، عن الأحول، عن سلام بن المستنير قال: سمعت أبا جعفر عليه السلام يحدث: «**إذا قام القائم عرض الإيمان على كل ناصب، فإن دخل فيه بحقيقته، وإلاّ ضرب عنقه، أو يؤدي الجزية كما يؤدّيها أهل الذمّة**»، وعن أبي عبد الله عليه السلام في قوله تعالى: ﴿**يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا**﴾[٢٤] إلى قوله تعالى: ﴿**حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا**﴾[٢٥] ثلاث عشر آيات، قال: «**هم الأوصياء يمشون على الأرض هوناً، فإذا قام القائم عرضوا كل ناصب عليه، فإن أقرّ بالإسلام وهي الولاية، وإلا ضرب عنقه،**

٢٢) بحار الانوار، ج٥٢، ص: ٢٨٠.
٢٣) المرجع نفسه، ج٥٢، ص: ٣٤٠
٢٤) الفرقان: ٦٣.
٢٥) الفرقان: ٧٦.

أو يؤدّي الجزية كما يؤديّها أهل الذمة»[٢٦]، فهذه الروايات تؤكّد أن الإمام المهدي عجل الله فرجه يقبل وجود غير المسلمين في دولته المباركة شرط أن يدفعوا الجزية، كما أننا لا نستطيع أن نقول إن الإمام عجل الله فرجه يقتل كل شخص يخالفه الرأي، وهذا ما يريده أعداؤنا، حيث إن بعض الغربيين يصوّرون الإمام المهدي عجل الله فرجه على أنه قاسٍ، قاتل، وسفاك دماء، ويحاولون رسم صورة قاتمة ومظلمة لظهوره المبارك، وهذا ما نرفضه نحن الشيعة جملة وتفصيلاً، وعلى كل حال فإنه يمكننا أن نذكر في المقام عدة نقاط لا بدّ من الإشارة إليها.

أ- قد يكون المراد من الروايات التي تتحدث عن قتل الإمام لكل من يؤمن بغير الإسلام أنه لا يبقى في دولة الإمام عجل الله فرجه كيانات وتشكيلات دينيّة وسياسيّة وفكريّة مستقلّة يمكن أن تقف في وجه المشروع الإلهيّ بقيادته عجل الله فرجه، فلا يكون المراد أنّ الإمام يقتل كلّ فردٍ يخالفه الرأي أو الدين، بل المقصود هو أنّ راية الإسلام هي التي سوف تنتشر في أرجاء المعمورة دون غيرها.

ب- إنّ قتل الأفراد لمجرّد مخالفتهم لديننا يخالف وينافي عقيدتنا وتعاليمنا الإسلامية، ويخالف سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام من بعده.

ج- يمكن أن نقول إنه يمكن - على المستوى الثبوتي- أن يقبل الإمام وجود غير المسلمين في دولته، إلا أن هذا لا ينافي عدم وجود غير المسلمين إثباتاً، فصحيح أنه يمكن أن يعيش غير المسلمين في دولة آخر الزمان، إلا أن هذا غير متصوّر إثباتاً، حيث إنّ الحجّة في ذلك الوقت تكون دامغة لا غبار عليها، فظهور المسيح عليه السلام وصلاته خلف الإمام عجل الله فرجه سوف تجذب قلوب الناس إليه سواء أكانوا مسلمين أم مسيحيين، كما أن انتصاراته وسيرته عجل الله فرجه بين أصحابه سوف تجعل القلوب تهوي إليه، هذا بالإضافة إلى أن عدم وجود كيانات دينيّة مستقلّة ذات شأن سوف يجعل الإيمان والاقتناع بغير الإسلام أمراً بعيد التصوّر.

د- إنّ التأثير الإعلاميّ الذي سوف يمارسه المسلمون في دولته المباركة سوف يكون له أبلغ الأثر في إقناع الناس بالإسلام، فنحن نعلم أن الإعلام اليوم هو بيد الغرب، ويمكننا أن نلمس حجم التأثير الذي سيمارسه هذا الإعلام على أمّتنا، فإذا كان هذا الإعلام بين أيدينا وبتوجيه من الإمام وتعاليمه وأوامره، فكم سيكون حجم التأثير الذي يمكننا أن نمارسه في ذلك الوقت، وهكذا يمكننا أن نقول إنه لن يكون هناك كيانات وأديان مختلفة في دولة الإمام، كما أنه لن يكون هناك أفراد غير مسلمين، لا لأن الإمام عجل الله فرجه

٢٦) المرجع نفسه، ج٥٢، ص: ٢٧٣.

يقتلهم، بل لأنههم سوف يرون بوضوح أفضلية الإسلام على كلّ الأديان، بما لا يقبل الترديد والشك.

ه- التطوّر العلميّ والصناعيّ والعمرانيّ في دولته عجل الله فرجه الشريف، حيث ورد في بعض الروايات أنه لا يبقى بقعة خربة غير معمورة في ظل حكمه الشريف فعن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**تطوى له الأرض وتظهر له الكنوز، ويبلغ سلطانه المشرق والمغرب، ويظهر الله عز وجل به دينه ولو كره المشركون، فلا يبقي في الأرض خراب إلا عمر**»[٢٧]، ويمكن القول إن القضاء على الظلم وانتشار السلام العالمي سيكون سبباً في تطور العمران ونمو الصناعة والإنتاج العلميّ.

و- النموّ الاقتصاديّ والقضاء على الفقر، فقد ورد في كثير من الروايات أن الرجل لا يجد فقيراً يعطيه صدقته. هذا بالإضافة إلى ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله «**يكون في آخر الزمان خليفة يقسم المال لا يعده**»[٢٨]، وورد عن أحمد بن هوذه، عن النهاوندي، عن عبد الله بن حماد، عن ابن أبي بكير، عن حمران، عن أبي جعفر عليه السلام أنه قال: «**كأنني بدينكم هذا لا يزال موليا يفحص بدمه ثم لا يدره عليكم إلى رجل منا أهل البيت، فيعطيكم في السنة عطاءين، ويرزقكم في الشهر رزقين**»[٢٩]، وعن أمير المؤمنين عليه السلام، عن النبي صلى الله عليه وآله قال: «(...) **يخرج فيملأ الأرض عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً يأتيه الرجل والمال كدس فيقول: يا مهدي أعطني فيقول: خذ**»[٣٠].

كما أنّ النموّ الاقتصاديّ هو نتيجة طبيعيّة للتطوّر العلميّ وللسلم والاستقرار العالميّ. ولا يخف أنّ هناك عنصراً مهماً ينبغي التركيز عليه، وهو أنّ ظهور الإمام لا يقتصر تأثيره الإيجابيّ على البشر فقط، بل يطال تأثيره الطبيعة أيضاً، وهذا من خصائص فلسفة الفرج التي يطرحها الشيعة كتصوّر لنهاية التاريخ، حيث أكّدت الروايات أنّ الطبيعة تظهر في آخر الزمان خيراتها وثمراتها وثرواتها للإنسان كنوع تكامل وتآلف بين الإنسان والطبيعة.، فقد ورد عن الحسن بن علي بن أبي طالب عليه السلام «...**وتخرج الأرض نبتها، وتنزل السماء قطرها، وتظهر له الكنوز**».

ز- التطور الثقافي والفكري عند الناس، حيث ورد في بعض الروايات أنّ الإمام يمسح فوق رؤوس أتباعه فيزيدهم ذلك حكمة وبصيرة.

٢٧) المرجع نفسه، ج٥٢، ص: ١٩١.
٢٨) الحاكم النيسابوري، المستدرك، لا طبعة، لا ناشر، لا تاريخ، لا مكان، ج٤، ص: ٤٥٤.
٢٩) بحار الانوار، مرجع سابق، ج٥٢، ص: ٣٥١.
٣٠) المرجع نفسه، ج٥٢، ص: ٣٧٩.

ح- انتشار القيَم الإسلاميّة(عولمة القيَم)، حيث إنّ سيطرة الإمام وأنصاره على العالم ومقدراته سوف تجعل القوّة الإعلاميّة بأيديهم، وبذلك يستطيعون امتلاك القدرة اللازمة للتأثير على الناس وهدايتهم إلى القيَم الإسلاميّة والإنسانيّة العليا، فيُمنع الفساد الذي كان منتشراً قبل ظهوره، وتنتشر مكانها الفضائل والقيَم.

وأخيراً نسأل الله تعالى أن يجعلنا ممن يعيشون في ظل دولته المباركة كي نرى نور الإسلام يسطع في أرجاء المعمورة.

اللهم عجّل لوليّك الفرج والنصر والعافية ونحن في خير منك وعافية يا أرحم الراحمين.